قصص من السيرة

(٣)

زوج البنت

بقلم

د. عبدالعزيز بن عبدالرحمن الثنيان

مكتبة العبيكان

obeikandl.com

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الثنيان، عبدالعزيز بن عبدالرحمن

زوج البنت. - الرياض.

٤٩ ص، ١٧×٢٢سم. (سلسلة قصص من السيرة؛ ٣)

ردمك: ٦-٨١-٤٠-٩٩٦٠

١- السيرة النبوية ٢- آل البيت أ- العنوان ب- السلسلة

ديوي ٢٣٩,٨ ٣٩٦٩ / ٢٢

ردمك: ٦-٨١-٤٠-٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٣٩٦٩ / ٢٢

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ /٢٠٠٢م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة.

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

ما أعز الأبناء وما أغلى البنات!

ولنا في رسول الله ﷺ الأُسوةُ الحسنة والمثل الأعلى. إن رسول الله أب حنون ورقيق عطوف، حَنّ على صغاره، وتلطَّف مع فلذات كبده، وحملهم على عنقه وهو في الصلاة.

ولنتأمل هذه الرقة، ونرى هذا العطف، ونُشاهد ذلك الحنان، ونلمس تلك الإنسانية في قصة زواج ابنته الكبرى، زينب -رضي الله عنها- وتأخر إسلام زوجها، وأسره وإطلاق سراحه، وموقف الرسول ﷺ من هذا الزوج الكريم، أبي العاص بن الربيع، واسمه لقيط بن ربيعة.

لقد كانت البداية قبل نزول الوحي، فقد أحب الخاطب زينب، وتمنى الزوج زينب، ولعله أسر بهذا الحب لخالته السيدة خديجة، وبهذا الشوق لسيدة البشر أم المؤمنين -رضي الله عنها-.

وتحنُّ الخالة لابن أُختها هالة بنت خويلد، وتلمح الشوق في قلب ابنتها الكبرى السيدة زينب، وتُخبر المصطفى عليه الصلاة والسلام، بهذه الرغبة، ويبارك الأبوان هذا الطلب، ويتقدم أبو العاص بن الربيع

يطلب يد الحبيبة من الحبيب الطاهر عليه الصلاة والسلام، فيُحسنُ الرسول استقباله ويُكرم وفادته، ويعهد لأمها أن تُبلغ الصبية النبأ وتنقل للكبد الرغبة.

ويقترب عليه الصلاة والسلام، من ابنته ويقول بصوت ملؤه الحب والحنان، والسعادة والإسعاد: بُنيتي زينب؛ ابن خالتك هالة أبو العاص بن الربيع تقدم وأبدى الرغبة.

وتصمت البنت، وتستحي الغالية، وتسكت الحبيبة، وأحسب سمعها قد زفّ البشارة لقلبها وجوارحها، ولكن الحياء يُمسك اللسان في هذه المواقف ما لم يكن الرفض والإباء، ويتريث الأب، ويسمع من بُعد خفقات القلب، ودعوات الأم، وعند ذاك يعود ويبارك للزوج ويدعو للحبيبين.

وكان أبو العاص بن الربيع من رجال مكة المعروفين بالمال والأمانة والتجارة والمكانة؛ ولهذا ما إن ذاع النبأ في مكة المكرمة حتى تُبودلت التهاني ولم يقل أحد إلا الخير والثناء.

ومضت الأسابيع وحان موعد الزفاف، واقتربت ساعة اللقاء، وتحددت ليلة البهجة، وفكرت الأم في ابنتها، وتأملت حبيبتها، ففي الغد ستذهب إلى العش الجديد، وستصبح سيدة آمرةً وامرأة مُدبِّرة، ولكن قلب الأم يضعُف، وفؤادها يَرق، ودمعتها تغرورق، فهل تصبر على الفراق، وهل تتحمل البُعد، ثم تناجي الأم نفسها، ماذا تهدي للحبيبة في هذه الليلة السعيدة؟ أتنزع قلبها، أو تهدي كبدها، أم تقدم مهجتها؟ آه أيتها الأم ما أصبرك، وأرقّك!

وآه يا أماه ويا كل أم، ما أحنك وأرحمك!!

وتلمح الأم السيدة خديجة -رضي الله عنها- قلادتها الغالية، وتتلمس حباتها الكريمة، وتعدُ لآلئها النفيسة، ولم تجد أعز وأغلى من هذه الهدية لتُطوق بها عنق ابنتها، وجيد حبيبتها العروس، وترفع بيديها الكريمتين هذه القلادة، وتحتضن جيد ابنتها وتشدُّ طرفَيْ خيطها حول العنق الرقيق، ثم تبتعد خطوات لترى القلادة وقد ازدانت بها العروس فتهمهم بالدعاء، وربما أنها مسحت دموع الفرح، وجففت قطرات الحب من وجنتيها.

وتنتقل العروس لبيت الزوج، وتعيش مع زوجها حياة كريمة، وعيشة راضية، كلها حب ووئام، ومسرة وسلام، وتُبادل الزوجة عطف زوجها بعطف أرقّ، وحبه بحب أجزل، ويكدح الزوج ويُسافر في طلب المعيشة، ويتنقل من بلدة لأخرى، ومن راحلة لراحلة وتتعاقبُ السفرة تلو السفرة، والرحلة إثر الأخرى، ولكن قلبه يظلُّ مع زينب، وفؤاده مع الزوجة الغالية، حتى صار الركبان يتغنون بأنشودته في بنت الحبيب، ويرددون أشعاره في بنت المصطفى -عليه الصلاة والسلام-، حيث يقول:

ذكرت زينب لما ورّكتْ إرمـــا فقلت سُقْيا لشخص يسكنُ الحرمَا

بنتُ الأمين جزاها الله صـــالحةً وكـــل بَعْـلٍ ســـيُثني بالذي عَلَما

أي والله، إن كل بعل أحبَّ سيهتف بالحب في خلوته، وكل زوج سيردد الشوق في سفرته، وسيجري على لسانه ما علمه من خصال حميدة، وما عرفه من سجايا كريمة، وسيتوارد في خواطره مُحيا الحبيبة، وسيتوالى أمامه طيف الرفيقة، وهنيئًا لهذا الزوج بنسل النبوةِ، وسُعدًا له ببيت الصفاء والكرامة، ولقد كانت الفتاة الصدوق،

والسيدة الطاهرة تُبادل زوجها شوقًا بشوق، تكتوي بمرارة الفراق، ولكنها تتسلى في بيت النبوة، وتُساعد أمها السيدة خديجة في شؤون الدار، وتُحسُّ مع أُمِّها بالفجر القادم، ولكنها لا تعلم الحقيقة، ويدور في هواجسها قلقٌ واضطراب، ولكن زوجها يبث في نفسها الطمأنينة، كلما عاد وحكت له ما تشعر به.

وتمحي الأيام، وتغيب الشهور، وينطوي الزمن، وروابط الحب تزداد بين الزوج وزوجته، ويرزقهما الله بالوليد الجديد، ويُسميانه عليًا، ويتربى الصغير غير بعيد من بيت النبوة، وتتبعه أخيته أُمامة، ويدرج الصغيران في أحضان الأبوين، وترمقهما عينا الأب الحنون رسول الله ﷺ، فيرق للطفولة ويأنس بالأحفاد، ويناغي الصغار، ويداعب الأطفال، وازداد حُبُّه للصغيرة أُمامة، حتى صار ﷺ يحملها على عنقه في الصلاة[1].

ودارت الأيام، وحان موعد الرسالة، وصدَع المصطفى -عليه الصلاة والسلام- بالحق، وأخبر أُم المؤمنين السيدة خديجة بما جاءه من

(١) الاستيعاب، ١٧٨٨١٤.

وحي، فلبّت النداء، وتبعتها زينب وأخواتها، وصدَّقن رسول الله ﷺ، وشهدن أن ما أخبر به حق، ولكن الأم والبنات سمعن قول ورقة بن نوفل: والذي نفسي بيده، إنك لنبيٌّ هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى ولتُكذبنَّه، ولتُؤذينّه، ولتُخرجنَّه، ولتُقاتلنّه[1]، ولهذا حملن هم الأبوة، وأشفقن على المصطفى -عليه الصلاة والسلام- وسرحن يفكرن في الغد، ويتذكرن قول ورقة بن نوفل: لتُكذبنه، ولتُؤذينه، ولتُخرجنه، ولتُقاتلنه.

وظلت زينب ترقب زوجها الغائب، وترجو أن يُسلم ويستجيب لدعوة الحق والهدى، وتُفكر في طِفلَيها، وكيف سيكون الحال لو أعرض وأبى، وصارت الهواجس تتوارد والظنون تتوالى، فساعة تفكر في أبيها، ولحظة تتأمل طفليها، ثم يعود بها الخيال للزوج الحبيب والصاحب الغالي.

وعاد الزوج من أوبته، ووصل المسافر من رحلته، وأسرعت إليه الزوجة تخبره الخبر السعيد، وتبشره بالنبأ العظيم، ولكن الزوج أشاح

(١) السيرة النبوية: ١/ ٢٢٩.

بوجـهـه، وأعـرض وأبى أن يُسْلِمَ، وبقي على شـركـه، إلا أن رباط الحب بين الزوجين مُتوغل في الأوردة، متأصل في قلبي الحبيبين.

وبدأت رحلة أخرى في حياة الزوجين، فـهـمـا قريبـان بعـيدان، بينهـمـا شوق وتَوْق، ولكن دونهما حاجز أقوى من الحب، وحائل أصلب من العواطف، وإرادة باعدت بينهما، فهي اختارت الإسلام، وهو بقي على الشرك، وصارت تناجيه، أسلم يابن الخالة، مالك يا أبا أمامة، ألا تشفق عَلَيَّ، ألا ترحم الصغار، ألا ترى النور، مالك وللجاهلية، وأين عقلك من هذه الأصنام؟

ويطرق الزوج مفكرًا، ويسرح به الخيال، ويجنح به الرأي، ويُبادره الشيطان بوسوسته، ماذا لو قالت قريش: إنه فارق دين آبائه إرضاءً لزوجته؟ ويطول السهر، والنجوى قائمة بين الزوجين، ويمتد النقاش، ولكن دون نتيجة، ويتمكن العناد من الزوج، فقد سيطرت العادات عليه، وغلبته وسوسة الشيطان، ويومًا بعد آخر، وهما قريبان بعيدان، فالهَمُّ يزداد، والعناء يتواصل، ويغلب إبليس الرجل ويمنعه من الدين والهداية.

obeikandi.com

ويود رسولُ الله ﷺ لهذا الزوج الخير والهداية، فيعرض عليه الإسلام، ويدعوه إلى الإيمان، ولكنه يصمت عند رسول الله ويطرق، ثم يعود إلى زينب حزينًا مهمومًا، حائرًا مترددًا، فهي الحبيبة الغالية، وهي الرفيقة الصادقة، وهي الخائفة عليه من الشرك، الراغبة في هدايته، المتلهفة على إسلامه، ويتمتم الرجل ويُفاتح زينب بكلمات عذبة رقيقة، ولكنها حزينة باكية، خافتة هامسة ويقول لها: يا أم علي يا أم أُمامة، لقيتُ أباك اليوم ودعاني إلى الإسلام، وما تنتظره زينب ليكمل حديثه، بل تُسرع في السؤال -فالهوى يدفعها والحب يزفها- بشرني ماذا أجبت أيها الحبيب الغالي؟

فيسكت الزوج، ويُطأطئ رأسه ويهمهم. وتعلم الزوجة أنه ما زال على عناده، وأن الله لم يشرح صدره للإسلام بعد.

وتمضي الأيام ورسول الله ﷺ يزداد أتباعًا، والإسلام ينمو ويكبر، وقريش تقف دون الدعوة، وتتمادى في إيذاء الرسول ﷺ، وامتد أذاهم لأسرة المصطفى ﷺ، فقالوا: إنكم فرَّغتم محمدًا من همِّه فردُّوا عليه بناته، وأشغلوه بهن، واسعوا لطلاقهن من أزواجهن.

إنه الأذى والبلاء، حتى العلاقة الزوجية سعى الكفار في خرابها، والرابطة بين المرأة وزوجها عملوا على إفسادها، ومشوا إلى أبي العاص وزينوا له فراق زينب، ورغبوه في طلاقها، وحثوه على فراقها، وأغروه بكل الوسائل، وعرضوا عليه أن يزوجوه بأي فتاة من قريش إن هو طلقها، وذكروا له صفات هذه وجَمالَ تلك، وحسّنوا له وزينوا إلا أن أبا العاص كان أكرم منهم، وكانت علاقته بزينب أقوى من الأحداث، وأمتن من أن تهزها تلك الإغراءات.

وقال لدعاة السوء والفرقة: بئس العرض عرضكم، لا والله لن أُفارق الحبيبة، ولن أدع الصاحبة، وما أُحب أن لي بسواها أي امرأة من قريش، ولو عرضتم كل فتاة وهيأتم كل الأسباب فلن أترك أم الأطفال ورفيقة الدرب، وزجرهم وردهم.

وكان رسول الله ﷺ يثني عليه خيراً.

وذهبت قريش إلى عتبة وعتيبة ابني أبي لهب، وقالوا لهما: طلقا ابنتي محمد رُقية وأمَّ كلثوم، واستجاب الشقيّان وعادت البنتان إلى بيت النبوة، وفارقتا بيت السوء والكفر، بيت حمالة الحطب «أم جميل

بنت حرب»، زوجة أبي لهب التي قالت لولديها وقد بلغ الحقد منها مبلغه: رأسي من رأسيكما حرام إن لم تُطلقا ابنتي محمد. وما إن عادت الكريمتان إلى بيت النبوة حتى تزوَّجتا بخيرٍ منهما.

وبقيت الرابطة الزوجية بين زينب وأبي العاص بن الربيع، وإن كان الإسلام قد فرق بينهما، فأقامت معه على إسلامها وهو على شركه، وظلت في داره تشهد الأحداث، وترى البلاء يتوالى على المسلمين والأذى يتتابع على والدها وصحابته، وتسمع كلمات السوء يتفوه بها المشركون.

ألا ما أصبر تلك السيدة، فقد ذاقت مرارة الحياة وقسوتها، ورأت مع أخواتها سفهاء قريش وهم يتطاولون على رسول الله ﷺ، وينثرون على رأسه التراب، وتتسابق الأخوات الطاهرات يُزيلن الأذى عن أكرم رأس وأعز إنسان وأفضل البشر، وترقّ إحداهن وتبكي وهي تزيل ذلك التراب وتغسل رأس رسول الله، ويتأثر الحبيب لبكاء ابنته فيقول: بنيتي لا تبكي فإن الله مانع أباك.

ويتنوع أذى المشركين، ويزداد البلاء على رسول الله وصحابته، ويشتد الهم ويتوالى الحزن بوفاة الأم الكريمة السيدة خديجة -رضي الله عنها- ووفاة العم أبي طالب، وتُعرف تلك السنة بعام الحزن، فقد فَقدَ رسولُ الله في ذلك العام الرجل الذي قال الرسول عنه: «ما نالت مني قريش شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب». ورحلت وزيرةَ الصدق والوفاء.

وبعد ثلاث سنوات من عام الحزن، وبعد شهور من العناء والصبر، أذن اللهُ لرسوله ﷺ بالهجرة إلى المدينة، وبقيت السيدةُ زينبُ مع زوجها في مكة، واشتد عليها البلاء، وازدادت عليها المعاناة، فالأحبّة رحلوا والذكريات تتجدد، تتلفت للأيام الخوالي والسنين الغابرة، حين كان رسول الله ﷺ على مقربة منها، يداعب أطفالها ويُناغي صغارها، وحيث كانت تركن لأمها السيدة خديجة، تبثها أشجانها، فتصبرها الأم وتواسيها الحبيبة، وحيث الأخوات قريبات يبادلنها الحديث ويشاركنها الهم، واليوم لا أحد إلا الأذى من المشركين، والوعيد من كفار قريش، لقد ظلت -رضي الله عنها- في مكة وحيدة، ترقب الأحداث، وترى قريشًا وهي تزداد قسوة وصلفًا

وتتذكر مقولة ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ : والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة . . . ولتُكذبنّه، ولتؤذينّه، ولتُخرجنّه، ولتُقاتلنّه . إنها ترى قريشًا تضطهد المسلمين؛ فهم ما بين مفتون في دينه، ومعذب في أيديهم؛ وهارب في بلاد الله فراراً منهم .

وتعيش المسكينة صراعًا داخليًا، فزوجها مع المشركين في مكة، وأبوها يقود المسلمين في المدينة، ويتوزع قلب البنت وتتشتت أفكارها .

آهٍ لو أسلم الزوج لما كان هذا العذاب، ولما صار هذا الأسى، ولكُنَّا مع المهاجرين في طيبة الطيبة .

وتتطور الأحداث بعد الهجرة مباشرة؛ فالمسلمون يتكاثرون، وراية الهدى تزداد منعة وقوة، ورسول الله ﷺ يقود الخير، فقد أذن الله -عز وجل- بالقتال والانتصار لمن ظُلم من المسلمين، وبُغي عليهم، ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ**

كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[1].

ويبدأ رسول الله ﷺ المنازلة والحرب مع قريش، فلا خيار مع لا إله إلا الله محمد رسول الله، ولا دين إلا الإسلام، ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[2]. وتنطلق السرايا من المدينة المنورة تُهاجم قريشًا وتعود.

ويسمع رسول الله ﷺ أن أبا سفيان قادم من الشام بتجارة لقريش ويندب المسلمين للغنيمة ويقول: هذه عير قريش، فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله يُنفلكموها.

ويعلم أبو سفيان بنيّة المسلمين، فيرسل ضمضم بن عمرو الغفاري على عَجل إلى مكة يخبرهم أن محمدًا قد عرض لهم في أصحابه، ويصل الرجل إلى مكة، ويصيح ويُنادي في أسواق مكة وقد جدع

(١) سورة الحج، الآيات: ٣٩-٤٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٣.

بعيره، وحوّل رحله، وشق قميصه: اللطيمة، اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث، الغوث.

ويتسابق أهل مكة يتجهزون للحرب وهم ما بين لابس سلاحه، أو باحثٍ عن رجل يذهب مكانه، ويخرجون إلى مصارعهم إلى معركة بدر المشهورة.

وتسمع زينب الخبر، وترى زوجها يُسرع مع الخارجين، ويتجهز لقتال والدها وصحابته، ويتمزق قلبها؛ فأبوها سيد البشر -عليه الصلاة والسلام- يقود الجيش الإسلامي، وزوجها يخرج مع المشركين، ويضطرب فؤاد المسكينة، فهل يا ترى تتلاقى أسياف الأحبة؟ ومن القاتل ومن المقتول؟ إنه اليُتْم لصغارها أو الثَكْل في أبيها.

ويغيب جيش مكة عن الأنظار ولكنَّ قلب المسكينة يعيش الأسى والألم، كيف ستكون المعركة؟ ومن الخاسر ومن الرابح؟ وتضم طفليها وتناجي صغيريها، ألا ما أطول تلك الليالي! وما أثقل تلك

الأيام! وما أمر تلك الساعات! هداك الله للإسلام يا أبا العاص، لو أسلمت لأرحتني، ولو آمنتَ لكنُتُ وإيّاك هُناك مع الأحبة، لقد قسَوتَ على نفسك وعلى طفليك ورفيقة دربك.

وتتحسس البنت الأخبار، وما أمرّها من أخبار؛ إنها يُتم الصغيرين، أو . . . لا لا لا، وقاك الله يا أبي، لقد صدق خالي ورقه ابن نوفل حين قال: . . . لتكذبنّه، ولتؤذينه، ولتُخرجنّه، ولتُقاتلنّه. ولقد قُلتَ ذات يوم وقولُك الحق: إن الله مانع أباكِ.

إن الله مع أبي ناصره ومُعزَّه، وإن معه أصحابًا لن يُسلموه، وحوله رجال يفدونه بذواتهم، وقد صدق ظنها.

روى ابن هشام أن رسول الله ﷺ عدّل صفوف أصحابه يوم بدر، وفي يده سهم يُعدِّل به القوم، فمرّ بسواد بن غزيَّة وهو مُتقدم من الصف، فطعن بطنه بالسهم وقال -عليه الصلاة والسلام-: استو ياسواد.

فقال سواد: يا رسول الله أوجعتني، وقد بعثك الله بالحق والعدل، فأقدني؛ أي اقتض لي من نفسك.

فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه وقال: استقد يا سواد.

فأكب سواد يقبل البطن الطاهر، واعتنق سواد خصر الكريم يلثمه ويشمه ويتمسح به، وأحسبه قد اغرورقت عيناه بالدموع.

فقال رسول الله ﷺ: ما حملك على هذا يا سواد.

قال سواد: يا رسول الله لقد حضر ما ترى ها هو الموت قاب قوسين أو أدنى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك.

فدعا له رسول الله ﷺ بخير.

هؤلاء هم صحابة رسول الله، وهؤلاء هم رفاق المصطفى ﷺ في السلم والحرب، وأحسب زينب بقيت ساهرة ليلها، باكية نهارها، تحدث نفسها وتناجي ذاتها، إن الله مع أبي؛ إن الله مع الخير ناصره.

وهو ما كان، فحين حان موعد اللقاء خفق رسول الله ﷺ وهو في العريش؛ أي نام نومًا يسيرًا، ثم انتبه فقال لأبي بكر -وهو بالقرب منه-: أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ عنان فرس يقوده على ثناياه النقع، أي الغبار، والتقى الجيشان وانتصر المسلمون.

وبينما أهل مكة يترقبون الأخبار إذ جاء الحَيسُمَان بن عبدالله الخزاعي، وصاح ونادى الهزيمة الهزيمة، أسر فلان وفلان، وقتل فلان

obeikandi.com

وفلان، ولما جعل يُعدِّدُ القتلى قال صفوان بن أمية وهو قاعد في الحجر، والله إن يعقل هذا، فاسألوه عني.

فقالوا: وما فعل صفوان بن أمية؟

قال الحيسمان: ها هو ذاك جالسًا في الحَجر، وقد -والله- رأيت أباه وأخاه حين قُتلا.

وأسرعت عمّة المصطفى -عليه الصلاة والسلام- عاتكة بنت عبدالمطلب إلى السيدة زينب تخبرها الخبر السعيد، وتقول لها: لقد انتصر أبوك وهُزمت قريش وقُتل صناديدها.

وتفرح السيدة زينب بانتصار المسلمين وغلبة الإسلام وسلامة أبيها، ولكنها تتذكر زوجها وترمق طفليها، وتذرف دموع الأسى على الزوج، فقد ظنت أنه قتل وأن اليتم لازم طفليها، وأن الشقاوة غلبت أباهما.

وتبشرها السيدة عاتكة، بأن أبا العاص لم يقتل، وأنه وقع أسيرًا لدى المسلمين، ويخفق قلب السيدة زينب وتعلوها النشوة، وترد الأخبار تباعًا بأن فلانًا قتل وفلانًا أسر، وفلانًا سيَفديه أهله وذووه.

ويعـــود المسلمـــون إلى المدينة بالأسـلاب والغنائم وبالجـرحى والأسرى .

وينظر رسول الله ﷺ إلى الأسرى، ويتعرف عليهم، ويرى صهره بينهم ويفرقهم بين أصحابه، ويستبقي صهره عنده في بيت النبوة .

ويتـوافد على المدينة أقارب الأسرى وذووهم، يفدونهم بالغالي والنفيس .

وعرفت زينب أن الأسرى يُفدون بألوف الدراهم، فأبو وداعة بن ضُبَيرة السَّهمي أسرع إليه ابنه المطلب، وفداه بأربعة آلاف درهم وعاد به إلى مكة .

وأنّى لزينب بالمال فماذا تعمل وقد رقَّت مشاعرُها، وغلبتها عواطفُها حين رأت الوفود ذاهبة إلى المدينة وعائدة بأسراها وفتشت عن المال فلم تجده، وهداها تفكيرها إلى أعز ما تملك، ووجدت أن أثمن ما لديها تلك الهدية التي تحفظها منذ سنين، والتي تُذكِّرها بأمها السيدة خديجة -رضي الله عنها- وغَلَّفَت تلك الهدية، وسلمتها لعمرو بن الربيع أخي زوجها وقالت: اذهب إلى المدينة وقدِّم لرسول الله هذه الصرة فداء لأخيك .

وسافر الأخ إلى المدينة، ووصل رسول زينب إلى طيبة الطيبة، وقابل رسول الله ﷺ والصحابة عنده وقال: بعثتني زينبُ أم علي وأُمامة لفداء زوجها أبي العاص بن الربيع، وأمرتني أن أقدم هذه الصرة فداء لزوجها.

وظن الحظور أنها دراهم، وحسبوها نقوداً تحفظها الزوجة لزوجها الأسير وأرسلتها فداء له، ولكن ما إن فُكت أربطة الصرة، وحُلّت أغلفتها حتى بدت القلادة القديمة التي كانت للسيدة خديجة.

ولما رآها رسول الله ﷺ عرفها، وتحركت عواطفه، ورق لها رقة شديدة، وخفق لها قلبه، واهتزت مشاعره، لقد كانت قلادةَ الحبيبة، وزيرة الصدق والعون يوم الضيق السيدة خديجة -رضي الله عنها-، التي أهدتها للبنت الغالية ليلة زفافها قبل الإسلام.

وأطرق الحضور خُشَّعًا لروعة الموقف، ورقة المشهد، وطراوة العواطف، وندى الأيام، وذكرى السنين.

إن المصطفى -عليه الصلاة والسلام- أبٌ وإنسان، من لحم ودم، وكبد وقلب، وهاهي ابنته في مكة يخفق قلبها، وتلك زوجته السيدة

خديجة يستعيد ذكراها، وكأنها على البعد تهتف بصوت شجي، اعطف يا رسول الله، استجب يا نبي الله، إنها هدية بُنيَّتنا، ونداء حبيبتنا، ورائحةُ كبدنا.

وتهتز مشاعر المصطفى ﷺ وتغلبه عواطفه، ويقول في رقة وحنان مخاطبًا أصحابه بفصاحة وبيان: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها ما لها فافعلوا.

حنانيك رباه ما أروع هذا المشهد.

رحماك إلهي ما أرق هذا الموقف.

إن الجبال لَوْ وَعَتْهُ لسالت رقه.

وإن الحديد لو أدركهُ لذاب حسرة.

ابنتك يا سيدي يا رسول الله تتعذب هذا العذاب، وتيعش هذا الأسى وتتألم هذا الألم، وأنت أيها الحبيب تتأثر وتعيش لوعة الفراق، وأسى الموت وذكرى الأحبة.

بأبي وأمي أنت يا سيدي يا رسول الله، حتى أصحابك في هذا الموقف تتلطف معهم وترجوهم أن يفعلوا.

والله لو كانت قلوبهم حجارة لرقّت، أو صخرًا للانت؛ ولهذا قالوا على الفور: نعم يا رسول الله، وأطلقوا الأسير، وردوا على زينب قلادتها.

وقَرُبَ أبو العاص بن الربيع من رسول الله ﷺ وهمس رسول الله في أذنه، ولم يعلم الحضور ماذا قال له، إلا أنهم علموا أن رسول الله أثنى عليه خيرًا في مصاهرته.

وعاد أبو العاص بن الربيع إلى مكة يحمل قلادة الحبيبة زينب، ووصل الزوج وهبّت زينب فرحة بسلامته، وأسرع الصغار يُقَبِّلون أباهم ويعانقونه. وما إن استراح من عناء السفر ووعثاء الطريق، حتى صار يقصُّ عليها ما مرّ به من أحداث، ويخبرُها بما همس به رسول الله في أذنه، فقد أمره المصطفى ﷺ أن يجهزها للسفر والهجرة إلى المدينة.

وفرحت زينب وظنت أن الزوج قد شرح الله صدره للإسلام، إلا أن أبا العاص أخبرها أن رسول الله أعلمه أن الإسلام لا يجيز له أن يستمر معها، ولابد من رحيلها إلى المدينة، وأنه الفراق ولا طلاق،

opelkandi.com

وأنه ما زال على عقيدة الآباء والأجداد، وأنها ليالٍ وسوف يحضرُ وفدٌ من المدينة ليصحبها في السفر.

وأحسب زينب ناجت أبا العاص وهو الحبيب الغالي وقالت له: لِم هذا الصدود وهذا الإعراض، ألا ترى الإسلام يزداد قوة ومنعة؟ ألم ترَ السماحة والعطف من المسلمين؟ ألا تشعر بالحب والحنان الذي نُكنُّه لك؟ ألا ترحم صغارك، ألا تشفق على أكبادك؟ ألم ترَ صناديد قريش وقد ذلوا وقتلوا؟!

ولكنه يُطرق ويصمت ويبقى حائراً متردداً، ويظل قلقًا مضطربًا تتجاذبه الأهواء، وتتنازعه العواطف.

وتسأله زينب ومتى الرحيل، وكيف سيكون السفر، ومع من تكون الرفقه، وإلى متى هذا العذاب والألم؟

ويُجيبها: إن هي إلا أيام وسوف يحضر زيد بن حارثة ورجل من الأنصار ليرافقاك في المسير إلى المدينة.

وتبدأ زينب في الاستعداد للسفر والتجهز للحاق بأبيها.

obeikandi.com

وتأتيها هندُ بنت عتبة وتقول لها: يا بنت محمد، بلغني أنكِ تُريدين اللحاق بأبيك.

قالت زينب: ما أردت ذلك.

قالت هند: يا ابنة عمي؛ لا تفعلي، إن كانت لك حاجة بمتاع مما يرفُق بك في سفرك، أو بمال تتبلغين به إلى أبيك، فإن عندي حاجتك، فلا تستحي مني، وقولي حاجتك، فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال.

قالت زينب: والله ما أراها قالت ذلك إلاّ لتفعل، ولكني خفتها فأنكرت أن أكون أريد ذلك، وتجهزت.

ويحق لزينب أن تخشى هندًا، فقد قتل المسلمون في بدر أباها عتبة، وعمَّها شيبة، وأخاها الوليد، وعددًا من أبناء عمومتها وسمعتها زينب وهي تصيح في قريش وتولول بالثأر والانتقام، وتُؤجج نار الحرب على رسول الله ﷺ وصحابته الكرام.

وفرغت زينب من تجهيز نفسها للسفر، وحان موعد الظعن، وقربت ساعة الرحيل، ولم يتحمل أبو العاص مشهد الفراق، وساعة

obeikandi.com

الوداع، فحبُّ زينب وطفليه يملأ عليه الأفق، ويضغط على كل عاطفة من عواطفه، وكل خلية من خلاياه؛ ولهذا اتفق مع أخيه كنانة بن الربيع على الخروج بها إلى بطن يأجج، وهو موضع على بُعد ثمانية أميال من مكة، حيث سيجد هناك زيد بن حارثة وصاحبه، وتحرك الركب الصغير، وركبت الطاهرة بنت الطاهر البعير، وأخذ كنانة قوسه ونباله، وخرج بها نهاراً يقود البعير وهي في الهودج.

وعلمت قريش بسفر زينب، وتحدثوا عن رحيلها، وندب بعضهم بعضًا، هذه بنت غريمنا تسير إلى يثرب، فأسرع أشقياؤهم يتقدمهم هبّار بن الأسود بن المطلب ومعه نافع بن عبد قيس، وروّعوا المرأة المسكينة، ونخس هبّار بعيرَها، فألقاها البعير على صخرة وكانت حاملاً، فطرحت جنينها، ونزفت الدماء من جسدها الطاهر -رضي الله عنها-.

وعند ذلك برك كنانة بن الربيع، وصوّب سهامَه وهو يزأر ويتوعد، ويُقسم أن لا يدنو رجل إلاّ وضع السهام في نحره.

وتراجع المطاردون، وأقبل أبو سفيان في جُلّة من قريش، ونادى: يا كنانة اسمع مني، وكفّ نبالك حتى أُكلمك.

قال كنانة: وماذا عساك قائل.

قال أبو سفيان: إنك لم تُصب يا كنانة، خَرَجْتَ بالمرأة على رؤوس الناس علانية وقد عرفتَ مصيبتنا ونكبتنا، وما دخل علينا من محمد، فيظن الناسُ إذا خرجْتَ بابنته إليه علانية على رؤوس الناس من بين أظهرنا أن ذلك عن ذُلٍّ أصابنا عن مصيبتنا التي كانت، وأن ذلك منا ضعف ووهن، ولعمري ما لنا بحبسها عن أبيها من حاجة، ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات وتحدث الناس أن قد رددناها فسُلَّها سرًا، وألحقها بأبيها.

وتمنّع كنانةُ بن الربيع بادئ الأمر، ولكنه سمع أنين زينب، ورأى الدماء تنزف من جسدها الطاهر، وقد أسقطت جنينها، فأشفق عليها، وتراجع عن قراره، وعاد بها إلى زوجها.

وبقي أبو العاص بن الربيع يرعى زينبَ ويُلازمها أيامًا حتى تهدأ العيون.

وأسرعت هند بنت عتبة تُعيِّر أُولئك النفر الذين روّعوا زينبَ وتزدريهم بكلمات السخرية والاحتقار، وتقول لهم: أهنا الفتوة

والرجولة يا أشباه الرجال! أهنا المنازلة والمناطحة مع الفتاة العزلاء! أأعيرةٌ في السلم، وفي الحرب نساء حُيَّض.

أفي السلم أعيارٌ جفاءً وغِلْظةً وفي الحربِ أشباه النساءِ العوارِكِ

وبعد أن هدأت النفوس، وخجل أُولئك النفرُ من أنفسهم، ومن تقريع هند لهم، خرج بها كنانةُ مرةً أخرى، وانطلق بها وقد أمسك بزمام الراحلة وعقد العزمَ على المنازلة والتحدي، وغاب عن الأنظار وهو يتغنى ببيتين من الشعر ويقول:

عجبتُ لهبَّارٍ وأوباشِ قومِه يُريدون إخفاري ببنت محمدِ

ولستُ أُبالي ما حييتُ عديدَهم وما اسْتَجْمَعتْ قبضًا يدي بالمهنّدِ

وسار كِنانةُ بالمرأة في هودجها ولم يعترضها أحد حتى سلمها لزيد ابن حارثة وصاحبه، فأمّا بها طيبة الطيبة، ووصلت إلى بيت المصطفى -عليه الصلاة والسلام-.

وعلم رسول الله ﷺ بما فعل هبّارٌ وصاحبهُ فغضب ﷺ لابنته وساءه ما فعل هؤلاء الأوباش، وبعث سرية من الصحابة وقال لهم:

إن ظفرتم بهبار بن الأسود أو الرجل الآخر الذي كان معه فحرقوهما بالنار.

ولما كان في الغد غيّر ﷺ رأيه وأرسل لأولئك النفر وقال لهم: إني كُنت أمرتكم بتحريق هذين الرجلين إن أخذتموهما، ثم رأيت أنه لا ينبغي لأحد أن يُعذب بالنار إلاّ الله، فإن ظفِرتم بهما فاقتلوهما.

وظلت زينب وطفليها في بيت النبوة يرعاهم رسول الله ويرقبهم المصطفى عليه الصلاة والسلام.

وأحسب زينب ظلت تفكر في زوجها وتدعو له بالهداية، وترجو له الخير، فلم تيأس من رشده وهدايته.

وبقي أبو العاص في مكة يغدو ويروح، وأخالُ جسمَه في مكة وعقلَه في المدينة مع زينب وطفليهما، علي وأُمامة، ولعله أشغل نفسه بالسفر والترحال، والبيع والتجارة، وابتعد عن قريش وائتمارها برسول الله وصحابته رضوان الله عنهم.

ومضت ست سنوات مليئة بالأحداث الجسام، وحُبلى بالصراع والصدام المسلح بين الإسلام والكفر بين المدينة ومكة.

obeikandl.com

واشتد الصراع، فقد قوى الخير وأفل الكفر، وزهق الباطل، ونما الحق، وتضاءل الشرك وعلت راية الإسلام، وتصاغرت راية الكفار، وضيق المسلمون الخناق على المشركين، وشدوا لهم كل مرصد، وتربصوا لهم في كل طريق.

وأقبلت الوفود على المدينة ينشدون الهداية، ويُعلنون الإسلام، وتقاطر الناس على طيبة يسألون عن رسول الله ﷺ ويعلنون إسلامهم، ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[1].

وكانت زينب -رضي الله عنها- ترقب القادمين، فلعل أبا العاص يفد مع الوافدين، ويُسلم مع القادمين، لقد كانت مشاعرها موصولة بمشاعره، وعواطفها ممزوجة بعواطفه، وكانت تتخيله وقد دلف الدار، وتتوسمه وقد جاء مُوحداً ومكبراً.

وطال الانتظار، ومضت الأيام، وغابت الشهور، وامحت الأسابيع، والغائب مقطوعة أخباره، والحبيب آفلة كواكبه.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨١.

وانغمس أبو العاص في تجارته، وازداد عند قريش قبولاً، فقد اشتهر بالأمانة وعُرف بالصدق، فأمّنه أهلُ مكة على أموالهم، وفي ذات مرّة وقُبيل فتح مكة خرج بماله وأموالٍ لرجال قريش، أبْضَوعُوها معه إلى الشام، ولما فرغ من تجارته في الشام، وقفل عائداً إلى مكة لقيته في الطريق سرية لرسول الله ﷺ فأصابوا ما معه، وسلبوا جميع ما لديه من أموال، وأعجزهم هربًا، وعادت السرية إلى المدينة بما أصابت من أمواله.

وضاقت الأرض بما رحبت على أبي العاص، وبات صفر اليدين، ولم يدر ماذا يفعل، هل يتوجه إلى مكة، وقد سُلبت أمواله، وماذا يقول لرجال قريش الذين ائتمنوه وهل يصدقونه؟

وأحسبه قد أطرق يُفكر في مصيره وقد صار صفر اليدين حتى الراحلة والزاد فقدهما فكيف العمل! وما الحيلة؟ وماذا يعمل؟!

وهدته عواطفه للحبيب القريب، وساقته مشاعره للأحبة في المدينة النبوية، فبينه وبين بيت فيه خيوط من الود، وروابط من الحب، تدفعه إليهم دفعًا وتسوقه إلى ساحتهم سوقًا.

إن هناك أُم علي وأُمامه، فلديها الأمن والأمان، هي ابنة الخالة وأُم الأطفال، القلب بقلبها موصول، والعواطف بعواطفها ممزوجة، وأيقن أن لديها الإجارة والنجدة، وعندها الغوث والمساعدة.

وفي ليلة ليلاء، وبعد أن هدأ السّمَّار، وأظلمت الطرقات، دخل الرجل المدينة على حين غفلة من أهلها يدبّ دبيبًا، يُخفي حركاته، ويكتم أنفاسه، وينشد بيت الحبيبة السيدة زينب -رضي الله عنها-، ويكاد يمشي على أصابعه، وأحسب خياله سبقه إلى زينب، ولعل قلبه قد أسهر زينب، وأرّق أم الأطفال، وباتت تتحرى طيفه، وتتوقع قدومه كلما هبّ النسيم، وكلما تحرك باب الدار.

وكأني بأبي العاص وقد اقترب من الدار بات يهمس، زينب يا زينب.

ردي أيتها الحبيبة.

ارحمي أيتها الرفيقة.

أجيبي يا أُم علي وأُمامة.

اسمعي يا بنت خير البرية.

افتحي يا ابنة الخالة.

وأخال زينب سمعت النداء، واقتربت وقد وَجَفَ قلبُها، وخفق فؤادُها أهذا نداء أبي العاص؟! وهل هي في يقظة أم في أحلام؟! وهل هي في حقيقة أم خيال؟!

واقتربت زينب من الباب وقالت: أأبا العاص؟

وأجاب أبو العاص من الخارج بصوت شجي مكسور، إي والله، أنا أبو العاص.

وفتحت زينب الباب، ودخل وهو شاحب اللون مذعور الفؤاد كسير الجناح، ولعله جثا على ركبتيه، وأطرق حزينًا وجفّ لسانه عن القول والكلام.

وأظنها سألته، ما لك يا أبا علي؟ تكلم ما القصة وما الحكاية؟ ولِمَ في هذه الليلة الظلماء أراك تهمس كأنك تخشى المارة، وأحسبك تُطارد وتُلاحق، ولعلك مذعور.

تكلم أيها الغالي، تحدث يا ابن الخالة.

بَشِّرني أهو الإسلام والهداية؟

وسكت الرجل، وأطرق المسكين، فماذا يقول وهو لا يزال على كفره وضلاله، ولا يزال في غيه وعناده.

وتُلح في القول والسؤال.

ويقطع عليهما الجواب صوتُ بلال ينادي لصلاة الفجر.

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله.

أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله.

حيَّ على الصلاة، حيَّ على الصلاة.

حيَّ على الفلاح، حيَّ على الفلاح.

الصلاة خيرٌ من النوم، الصلاة خيرٌ من النوم.

الله أكبر، الله أكبر.

لا إله إلا الله.

وتُنصت زينب وأبو العاص لهذا النداء الطري، ويسمعان همهمة المصلين، ويُحسّانِ بخطوات رسول الله ﷺ وهو يخرج إلى المسجد

ليصلي بالمسلمين، ويتشجع أبو العاص ويتحدث ويقول: كلا يا زينب لم آتِ مُسْلمًا وإنما جئتك يا ابنة الخالة مستجيراً، إني مطارد وهارب، وقد لجأت إليكِ يا أُم علي وأُمامة، ارحميني، وأجيريني.

ويقص على زينب القصة وكيف سار إلى الشام وعاد، وكيف لقيته سرية فيها زيد بن حارثة ومعه مائة وسبعون رجلاً من المسلمين، فأصابوا كل ما معه، وكيف فرّ منهم حتى إذا جنّ الظلام، ونامت طيبة الطيبة، دخلها متخفيًا حذرًا، ينشد عندها الغوث والمساعدة.

ويسكت وينتظر منها الجواب، ولكنه يجزم بالإيجاب، فبينه وبينها عواطف ممزوجة بالحب، مجلوّة بالود، لم تَزِدْها الأيام والهجر إلا الشوق والمتانة.

ويرفع بلال أذان الإقامة، ويسمعون صوته الرخيم، ينداح عليهم من كل ناحية:

الله أكبر، الله أكبر.

أشهد أن لا إله إلا الله.

obeikandl.com

أشهد أن محمداً رسول الله .

حيَّ على الصلاة .

حيَّ على الفلاح .

قد قامت الصلاة ، قد قامت الصلاة .

الله أكبر ، الله أكبر .

لا إله إلا الله .

ويتقدم رسول الله ﷺ إلى المحراب للصلاة ويكبر ، ويُكبر الناس معه ، ويجهر بالقراءة ويخشع المصلون من ورائه .

وعلى عجل تلتفت زينب إلى أبي العاص وتقول له : لقد أجرتك يا أبا علي .

وتهب مسرعة وتفتح الباب وتصرخ بأعلى صوتها من صُفَّةِ[1] النساء وتقول : أيها الناس ؛ أيها الناس : إني قد أجرت أبا العاص ابن الربيع . إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع .

(١) أي من جهة صُفَّةِ النساء : وهو مكان مظلل في المسجد النبوي كان يأوي إليه فقراء المهاجرين .

obeikandl.com

ويحمل نسيمُ الفجر هذا الصوت الناعم، وتنقل خيوطُ الصبح هذا النداء الصادق. ويسمع المصلون الصوت الممزوج بعواطف الحب والحنان، ويعرفون مصدر النداء المشوب بالشجى والوجدان، ويتردد الصدى في ذاك المكان الطاهر.

ولما انتهى رسول الله ﷺ من الصلاة وقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أقبل على المصلين وخاطبهم، وقال: أيها الناس، هل سمعتم ما سمعت؟

وأجاب المصلون: نعم يا رسول الله، سمعنا الصوت وعرفنا مصدره.

وعند ذلك أقسم لهم -عليه الصلاة والسلام- وقال: «أما والذي نفس محمد بيده، ما علمت بشيء من ذلك، حتى سمعت ما سمعتم، ثم أردف -عليه الصلاة والسلام- وهو الأب العطوف، والإنسان الرحيم وقال: إنه يُجير على المسلمين أدناهم، وقد أجرنا من أجارت».

ثم انصرف رسول الله ﷺ وصحابته من المسجد وتوجه -عليه الصلاة والسلام- إلى السيدة زينب، ودخل عليها وعندها أبو العاص

ابن الربيع فما كادت ترى الرسول حتى هتفت ضارعة ونادت متوسلة : يا رسول الله ، إن أبا العاص إن قَرُب فابن عم ، وإن بعد فأبو ولد ، وإني قد أجرته .

لك الله أيتها الكريمة ، ما أرقك وأعظمك ، وما أعطفك وأحنك .

بادلْتِ زوجك حُبّا بحب ، واستجبْتِ لعواطفِك ، ولبيتِ دعوةَ المستجير ، وتعلمت الخلق العظيم من الرجل العظيم .

وينظر رسول الله ﷺ إلى الزوجين الوالهين ، ويُدرك مدى الحب الذي يربطهما ، والود الذي يجمعهما ، ويقول : أي بُنية أكرمي مثواه ، ولا يخلُصَنَّ إليك فإنك لا تحلين له .

ويمضي رسول الله ﷺ لشأنه ، ويبقى أبو العاص لدى السيدة زينب -رضي الله عنها- تكرم مثواه ، وتُجل ضيافته ، وأحسبه أمضى الوقت يُناجي طفليه ، ويُداعب صغيريه ، وأخال السيدة زينب -رضي الله عنها- ظلت تلح عليه وترغبه في الإسلام ، وتحضه على الإيمان ، وتُناجيه : لِمَ هذا العذاب ، وإلى متى هذا الهجران؟

وأطرق المسكين وهَمهمَ وقال: يا أُم علي، لقد عرض المسلمون عليَّ بالأمس الإسلام وقالوا: هل لك أن تُسلم وتأخذ هذه الأموال؛ فإنها أموال المشركين؟ وأبيت وقلت: بئس ما أبدأ به الإسلام أن أخون أمانتي.

وأدركت زينب أنه اقترب من الخير، وأنه على وشك الهداية، وازداد أملها، وعظم رجاؤها.

ولما ارتفعت شمس ذلك اليوم المبارك، وتحرك الناس ونشطوا لشؤونهم، بعث رسول الله ﷺ إلى رجال السرية، ودعاهم إلى الحضور وأقبلوا إليه سراعًا، وحضر معهم أبو العاص بن الربيع.

وقال لهم رسول الله ﷺ: إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالاً، فإن تُحسنوا وتَردُّوا عليه الذي له، فإنا نُحب ذلك.

بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ترجو صحابتك، وتَترفَّق برجالك، وتتلطّف إليهم أن يستجيبوا، وتُصرح لهم بحبِّك ورغبتك في العطف على أبي العاص بن الربيع، وتخشى أن تكون لهم الرغبة في

الاحتفاظ بهذا الفيء والإبقاء على هذه الغنيمة، فتترك لهم الخيار فهو عطاء الله ورزقه، فلا تثريب ولا عتاب، وتقول لهم: وإن أبيتم فهو فيءُ الله الذي أفاء عليكم فأنتم أحق به.

حقًا إنك لعلى خلق عظيم، وإنك سيُّد الرحماء.

وكما قال شوقي:

وإذا رحمت فأنت أمٌّ أو أبٌ هذان في الدنيا هما الرُّحماءُ

لقد كان الصحابة يعلمون بثناء الرسول على أبي العاص في مصاهرته، فقد كان يقول ﷺ: «حدثني أبو العاص فصدقني، ووعدني فوفَّى لي».

لقد وعد أبو العاص النبي ﷺ بعد فك أسره إثر معركة بدر ببعث زينب -رضي الله عنها- إلى المدينة فوفى بوعده، وفارقها مع حبه الشديد لها ووله على فراقها.

واستجاب الصحابة لرغبة الرسول ﷺ وقالوا جميعًا: نرد الفيء يا رسول الله، نرد الفيء يا رسول الله.

واندفع أولئك الأخيار يُعيدون المتاع، ويحضرون البضاعة، حتى إن الرجل منهم ليأتي بالدلو، وبالسقاء البالي، وبالإناء الصغير، وبالخشبة العقفاء، وردوا عليه ماله بأسره لم يُفْقَد منه شيءٌ.

إنهم ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾[1] وأحبوا المصطفى -عليه الصلاة والسلام- حبًا لو كان فوق الأرض لأظلّه أو تحتها لأقله.

واجتمع لدى أبي العاص جميع ما غاب، وتكامل ما أُخذ واطمأن على المسير، وأمن الطريق، وودع الأحبة، ونوى الإيمان، وعقد العزم على العودة ولكنه كتم ذلك.

آه ما أقسى ذلك الرجل على نفسه وزوجته وأطفاله!

ودفع رواحله إلى مكة تتهادى، آمنة في طريقها، حاملة جميع البضائع التي قدم بها من الشام.

ووصل خبر وصوله إلى مكة، واستبشر أصحاب الأموال بسلامة بضائعهم وربح تجارتهم، وتحدثوا عن أمانته، وأشاروا بوفائه،

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.

وأكبروا شهامته، فقد استلم كل ذي حق حقه، وأخذ كل ذي بضاعة بضاعته.

وأحسبهم تعجبوا وتساءلوا كيف نجت القافلة، وكيف عادت التجارة بعد أن جاءهم الخبر باستيلاء الصحابة عليها.

ولما انتهى من تسليم تلك القافلة، صاح بأعلى صوته، وانطلق ينادي في كل حي، ويهتف في أهل مكة ويقول: يا أهل مكة، يا رجال قريش هل وفيت وأديت؟

هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟

قالوا: لا. وجزاك الله خيرًا، فقد وجدناك وفيّاً كريماً.

وربما قال آخر: متى السفرة القادمة، ومتى الرحلة الأخرى، فلدينا الأموال وأنت المأمون، ولدينا البضاعة وأنت الوفي.

وعند ذلك صدع بالحق وأعلن إسلامه، ورفع الصوت وكبر وجهر وقال: إذًا يا أهل مكة اسمعوا ما كنت أحيدُ عنه، واعلموا بزوال ما ران على قلبي، وذهاب ما غشى بصري فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

والله مـا منعني من أن أعلـن إسـلامي في المدينة إلا تَخَـوُّفًـا من أن تظنوا أني إنما أردت أكل أموالكم ، فلما أداها الله إليكم ، وفرغت منها فها أنا أعلن إسلامي وأبرأ منكم ومن الشرك .

ووجم كـفـار قـريش ، وذُهل رجـال مكة ولم يجـرؤوا على الذم واللوم ، ولم يتفوهوا بالنقص والازدراء ، وسكتوا وخرسوا ، وما قالوا ولا عابوا .

وبات أبو العاص يستعد للهجرة إلى المدينة ، إلى الأحبة والأحباب ، إلى الخيِّرين الأخيار ، وانطلق يستحث الخطى ويهرول براحلته ، يدفعه الشوق رافع الرأس ، وَلِهَ الفؤاد ، ينهب الأرض نهبًا ، يقفز الوهاد ويطوي الأميال ، ووصل إلى يثرب الطيبة وتوجه إلى رسول الله ﷺ لينطق بين يديه بالشهادة ويعلن أمامه الإسلام ، ويسأل الله المغفرة ويرجو ربه الرحمة .

ويخفق قلبه للحبيبة الغالية السيدة زينب -رضي الله عنها- .

إنه يُريد قُربها وينشدُ بيتها ، ويهوى عِشَّها ، ويحنُّ لفؤادها ، هي رئتهُ التي يتنفسُ بها وهي عينه التي يبصر بها .

openkandil.com

لم يطلب سواها، ولم يفكر في غيرها، أغرته قريش بطلاقها، ورغبته في سواها فأبى وتمنع.

لقد ملكت الحبيبة مشاعره، وسيطرت الغالية على عواطفه، وبادلها بالحب حبًا وبالشوق شوقًا وصبر كما صبرت، وتعذّب كما تعذبت.

وأسرع يسأل رسول الله ﷺ عن زينب فهي الزوجة الغالية، وهي ابنة الخالة العزيزة، وهي أُم علي وأُمامة، أريد قُربها وأُريد حنانها، وأنشد هواها، فهل تأذن يا رسول الله بالذهاب إلى زينب؟

ويُكرمه المصطفى ﷺ فينطلق به إلى بيت الغالية، السيدة زينب، ليجمع شمل الأحبة ولتلتقي القلوب بعد الفراق، ولتجتمع العواطف بعد الشوق، وتتمزج دموع الفرح بدموع الدلال.

ويعود الزوجان بعضهما لبعض، وقيل: ردها عليه رسول الله ﷺ على النكاح الأول، وقيل: ردها بنكاح جديد.

ويأنس الزوجان ويفرح الحبيبان، ويعود لهما الأنس والسرور، ويُغردُ الصغيران عليٌ وأمامة بين الأبوين ويدرجان في حضن الحبيبين.

وتمضي الأيام سراعًا، وترحل الشهور تباعًا، وبعد عام من عودة الحبيب، وإسلام الزوج، واجتماع الشمل، يشتد المرض على زينب -رضي الله عنها- ثم يكون الفراق الدنيوي، وترحل الحبيبة وهي في الثلاثين من عمرها بعد أن قرّت عينها بإسلام زوجها أبي العاص بن الربيع.

ويحزن رسول الله ﷺ لفراق زينب ويأس لرحيل الغالية، ويجلس عند قبرها مهمومًا محزونًا، ثم يسرى عنه ويقول: كنت ذكرت زينب وضعفها وعذاب القبر فدعوت الله ففرج عنها[1].

ويلتاع أبو العاص لفراق الوفية والحبيبة ويشتد حزنه ويبقى مع طفليه علي وأُمامة يرعاهما ويخفق قلبه لهما، فهما بقية زينب، وهما رائحة زينب، وهما عطر زينب.

كما يجد رسول الله ﷺ في الطفلين السلوة والعزاء، فكان يأنس بهما، ويحمل أُمامة على عاتقه، وهو يصلي، فإذا سجد وضعها، وقضى صلاته ثم يعود يحملها.

---

(١) التذكرة للقرطبي، ص١٣١.

وازداد حُبُّه لأُمامة وتعلق بهذه الصغيرة فهي بَقِيَّة زينب -رضي الله عنها- تربت في أحضانه، وشبّت في رحابه، فصار يخصها بالعطف والحنان.

تقول السيدة عائشة -رضي الله عنها-: أُهدي إلى رسول الله ﷺ هدية فيها قلادة من جزع فقال: لأدفعنها إلى أحب أهلي إليّ.

فقالت النساء: ذهبت بها ابنة أبي قُحافة.

لكن رسول الله ﷺ دعا أُمامة بنت زينب فعلّقها في عنقها.

وبلغ من حب الرسول لابنها عَليّ أن أردفه معه على راحلته يوم الفتح ودخل مكة وهو رديف رسول الله ﷺ.

وعاش الزوج أبو العاص بن الربيع بعد زينب أربع سنوات حيث تُوفِّي في السنة الثانية عشرة من الهجرة في خلافة أبي بكر الصديق -رضي الله عنهم جميعًا-.

إنها قصة حب، وحكاية زوج، ازدانت بها كتب التاريخ، أعدت كتابتها للعبرة والذكرى.

رضي الله عن بطلة القصة ابنة الحبيب المصطفى ﷺ، وغفر الله لزوجها أبي العاص بن الربيع.

فكم كابد وعانى، ولكنه شرف بالإسلام.

جمع الله الحبيبين في دار الخلد والكرامة، ورزقنا الله قربهم يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، ورحم الله قارئاً أمّن على دعائنا ورجائنا، وجمعه الله مع الجميع في دار كرامته إنه سميع الدعاء.

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

Printing & Packaging
Tel: (01) 265 7744